الاغتراب المكاني بين التيه والانتماء
في رواية ساق البامبو. لسعود السنعوسي

Spatial alienation between getting lost and affiliation in the novel of "Bamboo stalk" by Saoud Al Sanaoussi

عمر شطة*

المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط، الجزائر،

مخبر علوم اللسان

a.chetta@ens-lagh.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/02. تاريخ القبول:2023/05/05 النشر:2023/05/31 .

ملخص:

تهتّم الرواية الحديثة بتجسيد الواقع الاجتماعي ودراسة مختلف الظواهر الحياتية التي تتعرض لها الشخصية الروائية، مما يتمخض عنها انعكاسات نفسية وفكرية، تحدث زوبعة وصراعا داخليا بين الإقدام أو الإحجام في اتخاذ القرار المناسب، وهذا ما حدث لشخصية عيسى في رواية "ساق البامبو" التي شعرت بالتيه والضياع واليأس والحزن وللانتماء في وطن كانت تظنه أنّه وطنها الأم ووطن أبيها. وهذا الوطن هو المكان الذي كان يأمل أن يعيش فيه ويحقق فيه أمانيه ويجد فيه العطف والعيش الرغيد ويجد فيه عائلة أبيه، الذي لم يره منذ ولادته. فاغترب عن وطنه صغيرا وكبيرا. فصاحبه القلق واللانتماء.

والهدف من دراسة هذا الخطاب الروائي هو كشف عن تجليات الاغتراب المكاني، الذي هو محور الأحداث الروائية، بإتباع المنهج التحليلي الوصفي، محاولا إبراز أهمّ التمظهرات والتجليات لهذا الاغتراب المكاني من خلال السؤال الآتي: هل نجح الروائي سعود السنعوسي في إبراز تمظهرات الاغتراب المكاني بين التيه والانتماء من خلال الشخصية الرئيسية "عيسى"؟

الكلمات المفتاحية: اغتراب؛ اغتراب مكاني ؛ انتماء ؛ تيه؛ انتماء ديني.

Abstract:

The modern novel is interested in reflecting the social reality of the novelist's character which causes psychological and intellectual, and that is precisely what happened to the « Bamboo stalk »novel's character who felt alienated in a homeland he taught was his home country.

This homeland was where he hoped to live in and realize his wishes, and find kindness, as well as find prosperous and luxurious life, and find his father's family. So, he immigrated from his country so young. he was accompanied by disaffiliation**.**

I will treat this fictional speech from a spatial alienation. This is the axis of narrative events. It needs a critical reading by employing the descriptive analytical approach

through showing the manifestations of this alienation **.**

And the asked question is: Did the novelist Saous Assanoussi succeed in showing the manifestations of spatial alienation between getting lost and affiliation through the main character Issa?

Keywords: alienation; spatial alienation; affiliation; getting lost ; religious affiliation .

*المؤلف المرسل

المقدمة:

إنّ ظاهرة الاغتراب شغلت الأدباء و المفكرين منذ عصور خلت، وامتدّ ذلك إلى الرواية الحديثة التي تصوّر الواقع الاجتماعي بمختلف مظاهره الحياتية من خلال الشخصيات الروائية وما ينتابها من انعكاسات نفسية وفكرية واجتماعية وثقافية ودينية و تغوص في أعماق الذات و تصدعاتها وإحباطها وتيهها لعدم شعورها بالانتماء إلى البيئية الاجتماعية والعالم المحيط بها، ممّا يدفعها إلى الانفصال والانعزال عن الآخرين أو الاستسلام والرجوع إلى من حيث أتت.

ولموضوع الاغتراب المكاني وقعه وأثره على الإنسان، لأنّ المكان هو الأكثر ارتباطا وأعمق صلة بالذات البشرية، في تآلفها معه أو معاداتها له.

وهذا ما أبدع فيه الروائي "سعود السنعوسي " في روايته "ساق البامبو" بسرده لأحداث قصة بطل يعاني صراعا بين ثنائية التيه و الانتماء، في إطار مكاني تأرجح بين وطنين مختلفين(الفلبين/الكويت)، فهو بين التآلف أو المعاداة، ممّا جعل المكان خلفية ارتكز عليها الكاتب لتصوير وجهة نظره بشكل فنّي.

فسعت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على شكل من أشكال الاغتراب المكاني في رواية "ساق البامبو" وإبراز أهمّ تمظهرات هذا الاغتراب وتجلياته، باحثين عن ثنائية الانتماء و اللاإنتماء، و مدى ارتباطها بتيه الشخصية الروائية.

ولتجلية ذلك اعتمدت على المنهج التحليلي الوصفي نظراً لملاءمته لطبيعة الدراسة، محاولا الإجابة عن الإشكالية الأساسية : ما مدى نجاح الروائي سعود السنعوسي في إبراز تمظهرات الاغتراب المكاني وتجلياته من خلال الشخصية الرئيسية " عيسى" ؟ وما هي الأبعاد المترتبة عن ذلك الاغتراب المكاني؟

I. مفهوم الاغتراب:

يعرّف الاغتراب بأنّه "وعي الفرد بالصراع القائم بين ذاته وبين البيئة المحيطة به بصورة تتجسدّ في الشعور بعدم الانتماء والسخط والقلق وما يصاحب ذلك من سلوك، أو الشعور بفقدان المعنى أو اللامبالاة." (الجماعي، 2010، صفحة 49).

كما أنّ حالة الاغتراب هي التي" تفقد فيه الشخصية مقومات الإحساس المتكامل بالوجود والديمومة وهو الحالة التي يتعرض فيها جوهر الشخصية للقسر والإكراه، فعندما تتعرض الشخصية الإنسانية في جوهرها العقلي، أو الثقافي، أو الاجتماعي، لنوع من التشويه والاغتصاب، تحدث عملية اغتراب." (وطفة، 1998، صفحة 247) وهو عند الكاتب فرنجية: " شعور بوجود علاقة انفصالية بين الواقع والحلم" . (فرنجية، 1982، صفحة 34).

II. سيميائية العناوين:

إنَّ عنوان" ساق البامبو"، هو العتبة الأولى التي تكشف لنا عن دلالات متن الخطاب الروائي، للولوج إلى العتبات الأساسية، والتي قسّمها الكاتب إلى خمسة أجزاء وهي:

- الجزء الأول: عيسى .. قبل الميلاد.
- الجزء الثاني: عيسى .. بعد الميلاد.
- الجزء الثالث: عيسى .. التيه الأول.
- الجزء الرابع: عيسى .. التيه الثاني.
- الجزء الخامس: عيسى .. على هامش الوطن.
- أخيرا: عيسى إلى الوراء يلتفت.

وهذه العتبات الخمس التي اشتغل عليها الروائي، أعطى فيها للمكان وللشخصية دور البطولة ودارت الأحداث بين أزمة الانتماء والتيه إلى أن كانت النتيجة اغتراب شخصية "عيسى" التي تشتت وضاعت وشعرت بالغربة في وطن كانت تظنه أنّه بلد العجائب الذي ستتحقق فيه أحلامه التي رسمتها لها أمه، ويجد فيه شيئا مما سمعه عن أبيه، وعن أصله، وعن جدته وعمّاته. ما ينسيه يُتمه وينسيه بعده عن وطن أبيه منذ ولادته، عندما خرج أبوه من الباب الخلفي وهو يحمله بين ذراعيه، تمّ نفيه مع أمّه إلى الفلبين، وعودته بعد سنوات إلى وطن أبيه، وتبدأ إشكالية التيه منذ أن وطأت قدميه مطار الكويت، فلم يعرف أين يضع قدميه وأين يقف، رغم أنه يحمل أوراق ثبوت أصله، استقبلته عائلة أبيه في ملحق للبيت الكبير، حاجز آخر صنعته التقاليد والعادات، والخوف من تلميحات الناس وألسنتهم اللاذعة، قررت العائلة أن تنفيه بعيدا في شقة، لأنها لا تستطع مواجهة المجتمع الذي تعيش فيه وتعلن صراحة أنّ عيسى هو ابن راشد الطاروف.

1- فالعتبة الأولى (عيسى .. قبل الميلاد.)،

بداية الاغتراب و اللاإنتماء، كانت بإصرار الجدّة " غنيمة" أن ترحل زوجة ابنها -الخادمة الفلبينية- التي تحمل بين أحشائها أوّل حفيد لها، دون شفقة منها أو تردد، فالخوف من العار والفضيحة في المجتمع الكويتي أقوى من الاعتراف بجنين من صلب ابنها الوحيد. فهاهي جدته - عيسى- تقول:

"- جوزافين.. السافلة.. تسافر في الغد.

ضمّت والدتي كفيها أمام وجهها باكية:

- نعم نعم.. سيّدتي.. أسافر في الغد.

أسكتها والدي بإشارة من يده. وجّه حديثه لجدّتي:

- لن تسافر وهي تحمل قطعة مني في أحشائها." (السنعوسي، 2012، الصفحات 43-44).

2- العتبة الثانية (عيسى .. بعد الميلاد.):

رحيله إلى وطن أمّه بعيدا عن وطنه أبيه. كان له أثره البالغ على أمّه "جوزفين"، ممّا جعلها تحمل همومها معها وابنها الكويتي الأصل بين بيديها، ولا سبيل لها إلاّ قبول حقيقة أنها لا تنتمي إلى وطن زوجها ولا حتّى ابنها له الحق في العيش مع والده ، هذا الطفل الذي شرب من لبن الاغتراب قبل أن يشتدّ عوده.

فقال: "ما إن استخرج أبي شهادة ميلاد لي باسم عيسى حتى اتصل بوكالة سفر، طالبا منهم حجز مقعد على أي طيران يقلّنا إلى مانيلا، شريطة ألا يكون ذلك عبر الخطوط الجوية الكويتية.

وبعد أيام كان الرحيل ولكن هذه المرة .. كان رحيلا من بلد والدي إلى بلد والدتي." (السنعوسي، 2012، صفحة 51).

3– العتبة الثالثة: (عيسى .. التيه الأول):

تمثلت هذه العتبة في التيه الديني الذي عايشه البطل عيسى، فهو يبحث عن أيّ ديانة ينتمي إليها، و ظهر ذلك من خلال استخدم الكاتب للتقنيات السردية المتنوعة كالحوار مع صديقه" إبراهيم سلام" و تقنية المنولوج في حديثه مع نفسه" أتراني بوذيا من دون أن أعلم". " أمسلمٌ أنا دون اختيار ؟".

إلى أي ديانة ينتمي، هل إلى ديانة أبيه أم جده ميندوزا ؟

" الشك في الله يعني الشك في ضمير المرء، وهذا يؤدي إلى الشك في كل شيء" خوسيه ريزال.

4–العتبة الرابعة: (عيسى .. التيه الثاني):

انتقاله إلى الكويت وفي المطار بدأت رحلته إلى أيّة فئة هو ينتمي، هل مع من هم يشبهونها أم الذين لا يشبهونها ؟ وهذا هو وضعه الجديد " الهامشي أو المهمش الذّي يعجز عن أن يتمثل خارج مساحته الزمنية المختزلة أو خارج أمكنته المحددة". (العيد، 2011، صفحة 20)

"مطار كئيب ذلك الذي حطت به الطائرة يوم الأحد، الخامس عشر من يناير 2006. الوجوه تشبه مطارها، كئيبة، بشكل لم أجد له تبريرا. انتشر الناس في طوابير، أمام موظفي المطار، يختمون جوازاتهم، وفي مقدمة كل طابور، في الأعلى، لافتات، كتب على بعضها "G.C.C CITIZENS" :، وكتب على بعضها الآخر: " مواطنو الدول الأخرى". وقفت في حيرة أمام هذه الطوابير. هل أتوجه للطوابير التي يقف فيها الفلبينيون الذين كانوا معي في الرحلة؟ أم تلك الطوابير التي يقف فيها أناس لا يشبهونني؟ " (السنعوسي، 2012، صفحة 185).

وهل هو من أفراد عائلة أبيه، يعيش بينهم وينعم بدفء جدّته وعطف عمّاته أم هو مستعار منه قريب إلى سكن الخدم ؟ : "اختفى أفراد العائلة في الداخل. كنت خلف الستارة لا أزال. إينانغ تشولينغ بين يديّ. حمدا لله أن لها صَدَفة قوية، لم تتهشم بفعل الضغط بين كفيّ في حين كنت أنظر إلى عائلتي من منفاي في ملحق المنزل، والحسرة تملأ قلبي. لو أنني كنت معهم لكفاني ذلك، أصواتهم، على بعدها، ترتفع، تصم آذاني الضحكات والكلمات التي أجهل والـ كولولولووووش!" (السنعوسي، 2012، صفحة 265).

5– العتبة الخامسة: (عيسى .. على هامش الوطن):

اغترب عيسى مرة أخرى بخروجه من بيت الطاروف بعدما رفضت "إيمان" أن تبقى ابنتها "خولة" وهي أخت عيسى في نفس بيت جدّتهما. فقرر الرحيل من أجل أخته ليسكن في شقة بعيدا عنهم. " قلت لها حاسما أمري: " سوف أقطع لسان أم جابر.. وسوف لن أكون سببا في تركك للبيت الذي تحبين ". أومأت مستفهمة. أجبتها: " قررتُ الرحيل ". لم تتمسك خولة، رغم حزنها، بوجودي، فوجودي في بيت الطاروف أصبح مرهونا بخروجها منه. اكتفت بسؤالي وشيء من ملامح الصدمة استوطن وجهها: إلى الفلبين؟. أجبتها: إلى الكويت." (السنعوسي، 2012، صفحة 293).

شعر خوسيه بالضياع في غرفة الملحق ببيت الطاروف وبالوحدة والقلق والحزن في شقة صديقه إبراهيم رغم اتساعها، فهو يعيش في تيه وعزلة اجتماعية تشاركه المأساة فيها سلحفاته التي لم تدم صحبتهما معا بعد أن وجدها ميتة "نفقت إينانغ تشوليتغ أكثر من احتمل مزاجي المتقلب.. حزني وغضبي وشكوتي. نفقت رفيقتي في غرفة إبراهيم بعد أن شاركتني ضياعي في غرفة الملحق في بيت ماما غنيمة وشقتي الواسعة في الجابرية. يا لهذه الوحدة! الكويت توصد أبوابها الأخيرة .. وأنا الذي حسبتني منها. شعرت فجأة أن هذا المكان ليس مكاني، وأنني كنت مخطئا لابد حين حسبت ساق البامبو يضرب جذوره في كل مكان." (السنعوسي، 2012، الصفحات 382-383).

من خلال هذا المقطع السردي، استطاع الكاتب أن يصوّر لنا الحالة النفسية التي يشعر بها "خوسيه" والنتيجة التي وصل إليها أنه لا ينتمي إلى هذا المجتمع، وأنّ لا جذور له.

فهل سيعود إلى أين المكان الذي جاء منه ؟

6- العتبة السادسة والأخيرة: (عيسى إلى الوراء يلتفت):

بعدما عاش خوسيه/عيسى الاغتراب في وطن أبيه بالكويت التي أوصدت أبوابها في وجهه، أدرك حقيقة مقولة "ريزال" عندما قال: " يبدو أنني قرأت مقولة ريزال بشكل مغاير لما كان يعنيه إذ يقول: " إنّ الذي لا يستطيع النظر وراءه، إلى المكان الذي جاء منه، سوف لن يصل إلى وجهته أبدا". آمنت بمقولته كما لو أنها نبوءة. حسبتُ الكويت يصل مكانا جئت من حين وُلدت فيه، ليكون وجهتي التي قررت الوصول إليها بعد غياب، ولكن.. حين نظرت ورائي لم أجد سوى الفلبين.. مانيلا.. فالنسويللا.. أرض ميندوزا.

ضاقت الكويت فجأة.. أصبحت بحجم غرفة إبراهيم سلام.. ضاقت أكثر.. أصبحت بحجم علبة ثقاب.. لم أكن أحد أعوادها. تذكرت كلمتهم المتداولة. الكويت صغيرة.". (السنعوسي، 2012، صفحة 383).

ففي كل هذه العتبات تأسست ثنائية الاغتراب والانتماء، الجذور واللاجذور يقول "خوسيه " بطل الرواية: " لو كنت مثل شجرة البامبو، لا انتماء لها. نقتطع جزءا من ساقها.. نغرسه، بلا جذور، في أي أرض.. لا يلبث الساق طويلا حتى تنبت له جذور جديدة.. تنمو من جديد.. في أرض جديدة.. بلا ماض.. بلا ذاكرة.. لا يلتفت إلى اختلاف الناس حول تسميته.. كاوايان في الفلبين.. خيزران في الكويت.. أو بامبو في أماكن أخرى" (السنعوسي، 2012، صفحة 94).

فعنوان الرواية "ساق البامبو" هو المرآة العاكسة للشخصية المحورية "خوسيه"، فهما يكونان ثنائية الانتماء للآخر بجذور أو بلا جذور، لذا فالعنوان "يحقق غاية ايحائية تجعله مفتوحا على شتى القرارات كما هو في النص، وتكون فيه اللغة القائمة على الخرق والانزياح، تتشكل في خضمه العلاقة بين الدال والمدلول وفق ثنائية التحديد واللاتحديد." (أشهبون، 2011، صفحة 74).

فإننا نلاحظ من خلال العتبات الأساسية التي بني عليها العمل السردي هي تركز على علاقة الأنا بالآخر/ المكان، بل تكاد تكون المحور الأساسي في الخطاب الروائي، لأنّ" الرواية من أكثر الفنون قدرة على تجسيد إشكالية الأنا والآخر إذا تتيح الفرصة لصوت الأنا للتعبير عما يضطرم في الأعماق من مخاوف وآلام وأفكار." (حمود، 2013، صفحة 14).

III. الاغتراب المكاني:

إنّ الرواية في خصائصها السردية تعتمد نمطاً سردياً متفرداً، فهي تعتمد جمالية السرد المسكون بالذات، التي تتوسط الرؤية، على مستوى الاتصال بالذات والمكان والزمن، وربما هذا ما يجعل من إيقاع الرواية بطيئاً بعض الشيء لأنّها تتعلق بشخصية روائية تجد نفسها بين مكانين/ وطنين، فلا تجد سوى ذاكرتين واحدة تتعلق بالوطن الذي انتقل إلى العيش فيه "من الكويت، سافرنا إلى الفلبين، لنعيش في أرض جدّي ميندوزا الذي نُسبتُ إليه اسميا، لأصبح هوزيه ميندوزا." (السنعوسي، 2012، صفحة 55)، وأخرى طارئة تتشكل في المكان الجديد وهي الوطن الذي ولد فيه ولم يره حتى كبر. وهذا الاغتراب بسب البحث عن مكان للانتماء إليه، فهو مواجهة الذات لذوات أخرى تحتل مكانا يريد أن يكون جزء منه، فهو الاغتراب عن المكان تبعاً لذاكرة مسكونة بالماضي الذي يحضر بالتقابل مع حاضره .

والمكان ليس عالما بعيدا عن العمران، وعن القيم والمثل والسلوكيات الحضارية، والعادات والتقاليد، إنّما هو ينطلق من تصوراتنا عن ذلك المكان، فرحلة بحث "خوسيه" عن حلمه، عن وطن أبيه هو قراءة علاقته الخاصة بالمكان، لذلك يعتبر المكان أحد أبرز الشخصيات التي اعتمد عليها الكاتب في تحقيق الأبعاد التي ينشدها في روايته، و هذا ما أشار إليه عبد المالك مرتاض قائلا: "لا يجوز لأي عمل سردي (حكاية، خرافة، قصة، رواية) أن يضطرب بمعزل عن الحيز الذي هو من هذا الاعتبار عنصر مركزي في تشكيل العمل الروائي." (مرتاض، 2005، الصفحات 191-192).

فنجد الكاتب يصوّر الفضاء المكاني ويصف الحياة اليومية للشخصية المحورية "خوسيه"، بالتوازي مع محاولة فهم وفك رموز الثقافة التي لم يتعود عليها، فهو قادم بثقافة الوطن الذي ينتمي إليه بيولوجيا، لذا يريد أن يستسيغ مما حوله، ويدرك مفهوم العائلة ومحتوى الدين وعقلية الناس وعاداتهم، واللغة التي يتكلمون بها، والسلوكيات التي ينتهجونها، حتى لا يشعر بالاغتراب المكاني في مختلف تجلياته الثقافية والدينية والاجتماعية التي تبدو مغايرة عن الوطن الذي نشأ فيه، فتضغط عليه ذاكرته التي تستدعي حكايات أمّه وصديق أبيه، حتى تجعله يستأنس بمكان ليس بمكان له، مما جعله يعود لوطن حيث نما كما تنمو سيقان البامبُو بلا جذور وبلا انتماء.

"الانتماء إلى المكان هو الذي يحدّد طبيعة العلاقة بالمكان من ناحية الغربة والألفة، فالمكان الأصلي هو المكان المحوري بالنسبة للشخصية إذا تحقّقت فيه مطالبها ورغباتها، ووجدت فيه الجانب الحيوي، وفي حالة افتقار هذا الجانب تبحث الشخصية عنه في مكان آخر، ومن ثمّ يحصل الانفصال عن المكان المركزي والاتصال بالمحيط." (يقطين، 1997، صفحة 92).

تجلّى الاغتراب المكاني وهو في شقة –صديق أبيه– "غسان" رغم اتساعها وكثرة نوافذها، ما يوحي له بالانتماء إلى المكان/ الوطن، على عكس نافذة صديقه تشانغ في مانيلا تشاينا تاون، حيث يقول:

"توطدت علاقتي بغسان خلال الشهر الذي قضيته في شقته الصغيرة، تلك الشقة التي كنت أشعر بالاختناق بداخلها. لم أعتد على هذا النوع من السكن. في غرفة تشانغ، كنت أستعين بالنافذة المطلة على معبد سينغ– غوان على ضيق المكان وصمته، أما نوافذ شقة غسان، على كثرتها، فلم أجد من بينها نافذة أشاهد من خلالها ما يثير الاهتمام سوى ذلك الشعور المرير بالغربة تجاه الأرض والناس." (السنعوسي، 2012، صفحة 195).

IV. أنسنة المكان وعمق الانتماء:

إنّ شدة مكوث بطل الرواية "خوسيه" طويلا في أرض جدّه بعد كل غروب الشمس وتعلّقه به لدرجة مخاطبتها ومجالستها والإحساس بها في أنسنته للأشياء المحيطة به، فهو يترك المكان قائلا "أشعر بالأشجار من ورائي تمد أغصانها محاولة الإمساك بي. نقيق الضفادع وصرير الحشرات يرتفع، أكاد أميّز اسمي يتردّد مصاحبا أصواتها. الأعشاب المهملة تتشابك حول قدمي تعطلني عن المضي في السير." (السنعوسي، 2012، صفحة 94) وهو يصف لقاءها بعد الغروب بلقاء الأحبّتي. وأنّه لن يغيب عنها كثيرا ولن يفارقها كأنّه يعقد معها ارتباطا معنويا وماديا "لقائي المقبل معها قريب جدا" (السنعوسي، 2012، صفحة 94)، فهو يظهر مدى انتمائه لأرض جدّه بوفائه وتعلّقه وتمسكه بها، كيف لا ؟ وهي التي علقت رائحتها وأصواتها وظلالها وأوراقها وأغصانها بين أحشاء فؤاده.

وهذه العلاقة الحميمية بين البطل وأرض جده، أزعجت أمّه، أو هذا ما تبادر إلى ذهنه، وعبّر عن خشيتها من عدم رحيله إلى موطن أبيه، قائلا: " أتراها كانت تخشى أن تنبت لي جذور تضرب في عمق الأرض ما يجعل عودتي إلى بلاد أبي أمرا مستحيلا؟.. ربما ولكن، حتى الجذور لا تعني شيئا أحيانا." (السنعوسي، 2012، صفحة 94).

في هذا المقطع السردي، إشارة واضحة من الكاتب إلى حدّة الاغتراب والاضطراب الذي يعانيه البطل ووعد أمّه بالعودة إلى جذوره، مما يعكس حدة الصراع والتأزم في تحديد انتمائه لأيّ وطن ينتمي، هل للكويت أو للفلبين ؟

V. التيه والانتماء:

يحكي خوسيه عن والدته التي هاجرت إلى الكويت من أجل لقمة العيش، وهناك شعرت بغربة المكان قائلة " النّاس هنا لا يشبهون الناس هناك، الوجوه والملامح واللغة، حتى النظرات لها معان أخرى تجهلها. والطبيعة هنا، لا

تشبه الطبيعة هناك في شيء إلاّ شروق الشمس في النهار، وطلوع القمر في الليل. حتى الشمس، تقول والدتي: "شككت في بادئ الأمر أنّها الشّمس ذاتها التي أعرف !" (السنعوسي، 2012، صفحة 29).

وهذا ما يوحي بعدم انتماء والدته "جوزفين" إلى هذه البيئة المحيطة بها، لدرجة أنّها شكّكت في قدرتها الإدراكية هل هي نفس الشمس التي تركتها في الفلبين.؟ ! "ما عادت الكويت تمثل لي شيئا منذ أخبرنا إسماعيل وقوع أبي أسيرا في الحرب. انصرفت فكرة العودة إلى بلاد أبي من تلقاء نفسها....كنت قد فقدت لهفتي وأملي بالرحيل إلى بلاد العجائب، رغم إيمان أمي". (السنعوسي، 2012، صفحة 101). وهذا نفس ما حدث له عندما أحسّ أنهم في صراع بين أن يقبلوا به أو يرفضوه، هل يقدموا عليه كأحد من أفراد العائلة أم ينفرون منه، "وحين عدت إلى بلاد أبي وجدتهم متورطين بي، يريدونني ولا يريدونني". (السنعوسي، 2012، صفحة 224).

فهل كانت أمّه تدرك ما ينتظر ابنها خوسيه في وطن أبيه ؟

VI. الاغتراب المكاني و الانتماء :

حرصت "جوزفين" على تذكير ابنها "خوسيه" منذ صغره، بانتمائه إلى بلد أبيه، من خلال أحاديثها ومحاوراتها "كانت تحرص بين الحين والآخر أن تذكرني بانتمائي إلى مكان آخر أفضل. وعندما بدأت النطق في سنواتي الأولى، كانت تلقني كلمات عربية: "السلام عليكم.. واحد اثنان ثلاثة .. مع السلامة.. أنا.. أنت.. حبيبي.. شاي قهوة" وعندما كبرت كانت حريصة كل الحرص على أن تحببني بأبي، ذلك الذي لم أره" (السنعوسي، 2012، صفحة 31).

ففي هذا المقطع السردي تنكشف صور الانتماء التي حرصت على غرسها في صغيرها، وهي الدين الإسلامي متمثلة في التحية (السلام عليكم)، وفي تعليمه اللغة العربية، (...مع السلامة..) ولغة التخطاب الاجتماعية، وأن ترسم جسر محبة بينه وبين أبيه وموطنه، حتى وإن كان لا يعرف عنه سوى اسمه راشد.

ارتباط المكان بشخص رجل لا يعرف عنه أكثر من كونه سببا في وجوده في هذه الحياة: "لم تتوقف أمي عن الحديث حول أبي والكويت، والحياة التي تنتظرني. كنت أبكي إذا ما جاء ذكر الكويت التي لا أعرف عنها شيئا. كنت لا أتصور نفسي في مكان غير أرض جدي ميندوزا في فالنسويللا." (السنعوسي، 2012، صفحة 73)

لقاؤه بمجموعة من الشباب الكويتي ومصاحبتهم وإخبارهم بأنه كويتي، جعله في حيرة كبيرة، فأحدهم الذي شكّك في صدق كلام "خوسيه" ورغم ذلك نصحه بعدم السفر للكويت، بصفته هذه، أي بملامحه الفيتنامية التي لا توحي أبدا أنه عربي كويتي "لست متأكدا من صحة ما تقول.. كونك كويتيا.. ولكن.صمت قليلا، وددت لو أقسم له بأن والدي كويتي، وأني وُلِدت هناك ولدي أوراق تثبت ذلك. تركته يكمل ما أراد قوله: ولكن، أيا كنت يا هذا، لا تفكر بالسفر إلى هناك بصفتك هذه. أدار لي ظهره عائدا إلى أصحابه في السيارة. نظرت إليهم والمال في يدي، والحيرة في وجهي." (السنعوسي، 2012، صفحة 162)

في المقطعين السّرديين، نكتشف مدى الحيرة والقلق اللذين ضاق بهما رأس "خوسيه"، بعد لقائه بالشباب الكويتي، "اختفى المجانين، تاركين لي مبلغا كبيرا من المال، وحيرة أكبر ضاق بها رأسي." (السنعوسي، 2012، صفحة 162).

فهل الأوراق الثبوتية التي تؤكد أصله الكويتي، غير كافية لأن يكون واحدا من هؤلاء الشباب الكويتيين، أم أنّ السياق الاجتماعي يفرض على البطل التخلي عن جذوره وعن حلمه ؟

"جلس معي فجر ذلك اليوم طويلا. اهتم لأمري. عرّفني إليه، ومن دون أن أفكر في تحذيرات عائلتي، وجدتني أبوح له بكل شيء يخصني. طمأنني: الكويت جميلة. الناس هنا طيبون. توقفت عند كلماته كثيرا. كدتُ أقول له: لأنّك لست كويتيا بوجه فلبيني!" (السنعوسي، 2012، صفحة 271).

فهناك مفارقة عجيبة في هذا الحوار الذي دار بين" إبراهيم سلام" و"خوسيه" تمثلت في أنّ الإحساس صديقه بطيبة الكويتيين، مختلف تماما عند خوسيه الذي يشعر بالتهميش والنفي والإقصاء وهو الكويتي الأصل، لكنّه فلبيني الملامح، والمرة الوحيدة التي نسي فيها ملامح وجهه الأسيوي، هي أثناء مساعدته لأصدقائه المجانين في الحملات الإعلامية الخاصة بالانتخابات البرلمانية الكويتية، محذرين الناس من بيع وطنهم، إذ كان مستمتعا بذلك الحماس الذي نقلوه إليه، ممّا جعله يبوح:

"في تلك الأيام كنت كويتيا كما لم أكن في حياتي. كنت في ذروة شعوري بالانتماء إلى هذا الوطن، ذلك الوطن الذي التحفت رفات والدي بعلمه ذي الألوان الأربعة." (السنعوسي، 2012، صفحة 363).

VII.الاغتراب المكاني والحلم:

إنّ أمّ خوسيه كانت معتقدة شديدة الاعتقاد –رغم مرور السنوات– أنّ وعد "راشد" زوجها سيتحقق، رغم معرفتها أنّه وقع أسيرا في الحرب، ومن هذه الثقة التي أحسّها "خوسي" في أمّه، تسآل "ماذا لو تحقق الوعد؟.. ماذا لو عاد ذلك الذي يدعى راشد؟ أمصير شجرة البامبو ينتظرني؟" (السنعوسي، 2012، صفحة 101). وهنا المقصود بالمصير هو رحيله عن جذوره الفلبينية ويعيش في بلد أبيه، بلد العجائب، الذي طالما سمع عنه، وصار جزءا منه بمخيلته، وزاد شوقه واشتدت حيرته، باحثا عن ذاته وعن الآخر/الوطن، باحثا عن الأسباب الحقيقية التي تجعله يرتبط بهذا الوطن، لأنّه "طالما عبر المكان عن العلاقة غير المنسجمة بينه وبين الذات المقيمة فيه، إذ نلمس خلف أستار المكان صيحات دفينة توحي بمعاناة التوتر والقلق والخوف على النفس." (الفلاحي، 2013، صفحة 85).

وهذا القلق والتوتر والتيه جعله يدرك أنه لا ينتمي إلى هذا المكان / الوطن "برغم السنوات التي قضيتها بينكم.. أنا لا أنتمي لكم". (السنعوسي، 2012، صفحة 179).

فارتبطت الكويت في ذهن البطل ببلاد العجائب، البلد الذي ستتحقق فيه الأحلام وينعم فيه بالعيش الرغيد، والغنى الفاحش، ويضمن مستقبله "في الكويت، التي تقدم لمواطنيها، وأنا أحدهم، ما لا تقدمه أكثر الدول تقدما، فالبطل يبحث عن حقوقه المادية." (السنعوسي، 2012، صفحة 77) . فتصوّرها الجنة، وحلم بتلك:

"الصورة التي كانت ترسمها لي أمي عن الجنة التي تنتظرني، أصبحت أنتظر ذلك اليوم الذي سأصبح فيه غنيا قادرا على الحصول على ما أريد من دون جهد". (السنعوسي، 2012، صفحة 71).

شعور البطل بأن ذاته تائهة في وطن يعصف بكينونته كانسان، بين وطن يرعاه ماديا إلى وطن لا يحتضنه معنويا، "لأوّل مرة أشعر باللاجدوى. حلمي القديم.. الجنّة التي وُعدت بها. سفري. المال الذي بات يفيض عن حاجتي.. ماذا بعد؟ في بلاد أمي كنت لا أملك شيئا سوى عائلة. في بلاد أبي أملك كل شيء سوى .. عائلة." (السنعوسي، 2012، صفحة 303).

تلك الصدمة كان منشؤها من وجوه الكويت العديدة، زادت من معاناته وزعزعت حلمه واختلّ توازنه بين موطنين (الكويت والفلبين) وهذا ما يعكسه إحساسه بالانكسار قائلا: " الكويت .. حلم قديم.. لم أتمكن من تحقيقه رغم وصولي إليها وسيري على أرضها. الكويت، بالنسبة لي حقيقة مزيفة.. أو زيف حقيقي.. لست أدري، ولكن، للكويت وجوه عدة." (السنعوسي، 2012، صفحة 324)، وذلك التيه في بلد يعترف بأوراقه الثبوتية وينكر وجهه ما كان له إلاّ أن يوقظ حنينه إلى الفلبين: " بلاد العجائب.. صورة مغايرة لصورة كنت أراها طيلة حياتي في الفلبين.. صورة خاطئة غير مطابقة لأحلامي.. لا شبه بين البلاد في مخيلتي القديمة وواقعي الجديد سوى أن هذه وتلك .. كلاهما.. بلاد العجائب" (السنعوسي، 2012، صفحة 367).

VIII. البحث عن الانتماء الديني:

إنّ هذا الخطاب السردي يعبر عن أزمة الانتماء التي يعانيها البطل "خوسيه" على عدة مستويات، في بحثه عن اسمه وعن وطنه وعن دينه، " أتراني بوذيا من دون أن أعلم؟ وماذا عن إيماني بوجود إله واحد لا يشاركه أحد.. صمد.. لم يلد ولم يولد؟ أمسلم أنا من دون اختيار؟

ماذا أكون؟

إنّه قدري، أن أقضي عمري باحثا عن اسم ودين ووطن. رغم ذلك، لن أنكر لوالديّ فضلهما في مساعدتي، من دون نية منهما، في تعرفي على خالقي.. بطريقتي." (السنعوسي، 2012، صفحة 66)

بحث بطل الرواية عن هويته الدينية في الكنيسة التي زارها مع خالته وأمه، أوقفته على عتبة الاغتراب الديني باحثاً عن أجوبة لما يلح عليه من سؤال: ماذا أكون؟ وهو سؤال وليد إحساسه بالتيه والضياع وعدم الانتماء ف "ليس هناك ما يميّز علاقتي بالكنيسة في بلاد أمي" (السنعوسي، 2012، صفحة 67).

كما أنّ للمكان دوره فالشخصيات أيضا لها تأثيرها على الأفراد من خلال دعوتها إلى الدين وطريقة تعاملها، فالبطل "خوسيه" تأثر بالسلطان المسلم " لاپو" مما جعله يحبب الإسلام إلى قلبه، ويعتبر والده المسلم، ينحدر من سلالته، أما " أبو سيّاف" زاده بعدا عن الإسلام بقتله الأبرياء والمبشرين. وهذا ما يوضحه هذا المقطع السردي الآتي:

"بطولة السلطان المسلم لاپو – لاپو وسيرته وتقدير عموم الناس له في الفلبين، على اختلاف أديانهم، واعترافهم بدوره في مقاومة المحتل، صور جميلة قربتني إلى الإسلام كثيرا.. جماعة أبو سيّاف بقتلهم الأبرياء والمبشرين، أبعدوني عن هذا الدين.. كثيرا." (السنعوسي، 2012، صفحة 173).

"لو أنهما اتفقا على شيء واحد.. شيء واحد فقط.. بدلا من أن يتركاني وحيدا أتخبط في طريق طويلة بحثا عن هوية واضحة الملامح.. اسم واحد التفت لمن ينادي به.. وطن واحد أولد به، أحفظ نشيده، وأرسم على أشجاره وشوارعه ذكرياتي قبل أن أرقد مطمئنا في ترابه. دين واحد أؤمن به بدلا من تنصيب نفسي نبيا لدين لا يخص أحدا سواي." (السنعوسي، 2012، صفحة 300).

صوّر لنا الروائي شخصية خوسيه بأنّها في رحلة البحث عن هويتها الدينية، وأنّها مهيئة بالفطرة في الوقت نفسه للإيمان بما يطمئن إليه قلبه، كما يقول خوسيه "كنت أمام إبراهيم أجلس. كان صامتا كما كنت أنا أيضا. في أذني اليمنى صوت الأذان يرتفع. في أذني اليسرى قرعُ أجراس الكنيسة. في أنفي رائحة بخور المعابد البوذية تستقر. انصرفتُ عن الأصوات والرائحة، والتفتُّ إلى نبضات قلبي المطمئنة، فعرفت أن الله.. هنا" (السنعوسي، 2012، صفحة 63). وأنّ ما وصل إليه خوسيه في بحثه عن الدين أنه "أعظم من معتنقيها". (السنعوسي، 2012، صفحة 63).

الخاتمة:

إنّ الخطاب الروائي يرتبط بشكل كبير بالواقع الاجتماعي، بما يحمله هذا الواقع من آمال وآلام ومن أحلام وتحديات .. وهذه الرواية هي نموذج لمشكلة الاغتراب داخل الوطن، التي عرفها الشاب ذو الأصول الكويتية والملامح الأسيوية الفلبينية، ففيه نقد واضح للوضع القائم في هذا الوطن، كاشفا عن انفعالات وأحاسيس انتابت الشخصية البطل وأثرت عليها نفسيا واجتماعيا، وجعلته بين إشكالية معقدة تتأرجح بين ثنائية التيه والانتماء، بين الجذور واللاجذور. ومن النتائج التي توصلنا إليها نورد منها ما يأتي:

-استطاع الكاتب تصوير الحالة النفسية الناتجة عن العزلة الاجتماعية التي شعر بها "خوسيه" والنتيجة التي وصل إليها أنّه لا ينتمي إلى هذا المجتمع، وأنّ لا جذور له فيه.

- انكسار وزوال حلم "بلد العجائب" البلد الذي كان يأمل العيش فيه ويحقق فيه أمانيه ويجد فيه العطف والعيش الرغيد ويجد فيه عائلة أبيه، فاغترب عن وطنه صغيرا وكبيرا. فصاحبه القلق والتيه والضياع.

- تشتت و ضياع الشخصية وشعورها بالوحدة نتيجة اغترابه مكانيا.

- مظهر الإنسان الاجتماعي وعرقه وأصله ولون بشرته، أقوى من الاعتراف المعنوي ومن الجوهر.

- الانتماء ظاهرة متشابكة ومترابطة مع عدة أطراف من المجتمع.

- وظف الكاتب العنوان كرمزية عن الانتماء والتيه.

- عالجت الرواية قضية الاغتراب التي يعاني منها الكثير في مظاهره المختلفة.

- شخصية المحورية هي التي تدور عليها أحداث الرواية وعجزها عن إيجاد حلول للانتماء.

- صوّرت لنا فئات معينة من المجتمع كعائلة الطاروف وكيف أنّ العادات والتقاليد غيرت مجرى حياتها.
- صوّرت الرواية مأساة "عيسى" في بحثه عن وطن يكفله معنويا أكثر منه ماديا.
- قدّمت الرواية صورة واضحة لمعالم الحياة الكويتية، بكل أبعادها المكانية والإنسانية والثقافية..
- مثّلت شخصية عيسى الصراع الذي يمكن أن يعانيه أي فرد يختلف لون بشرته عن الآخرين.

قائمة المراجع:

- أحمد علي الفلاحي. (2013). الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة نفسية اجتماعية)،. الفلوجة، العراق: دار غيداء.
- صلاح الدين أحمد الجماعي. (2010). الاغتراب النفسي الاجتماعي (ط1). عمان، الأردن: دار زهران للنشر والتوزيع.
- بسام فرنجية. (1982). دراسات في الرواية الفلسطنية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- سعودي السنعوسي.(2012).ساق البامبو(ط1). بيروت، لبنان: دار العربية للعلوم ناشرون.
- سعيد يقطين. (1997). قال الروايـ البنيات الحكائية في السيرة الشعبية (الإصدار ط1). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- عبد المالك أشهبون. (2011). العنوان في الرواية العربية (الإصدار ط1). سوريا: دار محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع.
- عبد المالك مرتاض. (2005). في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد. وهران: جار الغرب للنشر والتوزيع.
- علي وطفة. (. اكتوبر /ديسمبر، 1998). المظاهر الاغترابية في الشخصية العربية. (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، المحرر) مجلة عالم الفكر (ع 2).
- ماجدة حمود. (2013). إشكالية الأنا والاخر، نماذج روائية عربية. عالم المعرفة (ع398).
- يمنى العيد. (2011). الرواية العربية المتخيل وبنيته الفنية (المجلد ط1). بيروت: دار الفارابي.